

#33

جيرار كارامارو

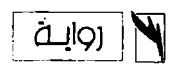
العرس السرّي

13.10.2018

ترجمة

آسية السخيري

أزمنة



جيرار كارامارو

العرس السرّي

ترجمة

آسية السخيري



العرس السرّي

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب

GÉRARD CARAMARO

LES NOCES SECRÈTES

جيرار كارامارو

العرس السرّي

ترجمة : آسية السخيري

الطبعة العربية الأولى 2008

رقم الإيداع (2008/5/1471)

ISBN 978-9957-09-339-6 (ردمك)



أزمنة للنشر والتوزيع

تلفاكس : 5522544

ص. ب : 950252 عمّان 11195 الأردن

شارع وادي صقرة، عمارة الدوحة، ط 4

E.Mail:info@azminah.com

Website:http://www.azminah.com

لوحة الغلاف: Antoine de Villiers (جنوب أفريقيا)

تصميم الغلاف: أزمنة (إلياس فركوح)

فرز وسحب الأفلام: زمرّد

الترتيب والإخراج الداخلي: أزمنة (نسرين العجو،إحسان الناطور)

الطباعة: النايا للدراسات والنشر / دمشق

تاريخ الصدور: حزيران/ يونيو 2008

تقديم الكاتب للطبعة العربية

إذا كان الأمين الدائم للأكاديمية الفرنسية موريس دريون/Maurice Druon كتب عن «العرس السرّي» : «أعتبر هذا إلهاماً ذا قيمة يذكّرنا بجيرار دي نيرفال/Gérard de Nerval ويجعلنا نحياه من جديد، كل ذلك مع لغة تعانق الكمال على كل المستويات» ، فإنَّ هذه الرواية القصيرة ظلت تقريباً مناجاة سرّية. وبالرغم من توزيعها الحر الناجح في نسختها الأصلية باللغة الفرنسية على شبكة الانترنت ، فإن طبعتها الأولى ورقياً تعثرت بسبب مشاكل النشر.

الحب الصوفي في «العرس السرّي» ، والروحانية الطبيعية التي تحملها كل العناصر في الرواية، وهذا الشعور المتشكل من اللحم والرياح، من الطين والسماوات، التي وهبت نفسها للّغةٍ خالدة استطاعت أن تصل إلى الذين يلتمسون الضوء في كل حبة رمل.

هي مغامرة غريبة لهذه القصيدة النثرية التي سيتعرف فيها شعراء عرب على بعض الخصائص والتي ، بالإضافة إلى ذلك ، سينشرها هنا هؤلاء الإخوة في الشعر.

صاحب الرواية ، جيرار كارامارو/Gérard Caramaro ، يود أن يعرب عن خالص امتنانه

للروائية والمترجمة آسية السخيري لعملها، وخاصة لرعايتها واحتفائها واهتمامها الأخوي. كما أنه يتقدم بشكره الضافي للروائي الشجاع إلياس فركوح ولدار نشره المتميزة للحفاوة التي حظيت بها رواية «العرس السرّي» ، ودون إغفال المترجم والروائي والشاعر الرائع محمد علي اليوسفي طبعاً.

جيرار كاراما رو

2008/5/10

ظهرت لي لوسيل ، هكذا ، في الخريف ، بين الكروم الضاربة إلى الحمرة والتحليق الأصفر للأوراق . مثل ثأر موجه لإصابات القدر ، يبدو أحياناً أنه ثمة أرواح مترعة بالعطف والبشاشة تعلن عن رغبتها في أن تضيء لنا الوجود . ذلك ، مثلما يقال ، هبة تأتينا فجأة ، نبأ سار ، نجاح أو لقاء ، مطر ينهمر على أرض أنهكها الجفاف أو نار تتقاطع في قلب الشتاء .

جاءت هكذا ، مشرقة ومتمردة ، الثغر في اضطراب سابق والعين غارقة في الصفاء . إذا اكتشفت هنا ، حتى ، وإن بدوت كافراً ، يداً أو من الأفضل لنقل عصاً سحرية ، فإن ذلك يعود لكون لوسيل نظرت إلي واختارتني .

طبعاً أردت أن أهبها الكلمات ، أن أوضح لها ، أن أغطيها لكنها لم تكن تتقن غير الضحك . جل أسلحتي هوت ، عندما ، فاقداً لكل قدرتي ، صرت لا أعرف غير تمليها ، مترعاً بالامتنان ، بالرهبة والانبهار . تضحك لوسيل وتصبح الضوء .

عندما أكلمها وأعتقد أنها تكون حينها مصغية بانتباه ، تصير لا تمت للإنسان بصلة ، هي تغدو فقط بهاءً جليلاً مذهلاً . ماذا تراني كنت إذن ، أنا ، المتسكع الدائم الترحال في دروب الفتنة والجمال ، الغاوي المنهك

باكراً، القلعة المقفرة، الرائع منذ عهد قريب، الشخص الآخر! كنت أذوب. روحي الزرقاء والرمادية يا لوسيل، روحي المغطاة بالندوب، تنسكب، وأنا أرغب في أن تخترقك.

حياتي المختصرة مع لوسيل لم تكن رغم ذلك ملائكية وحسب فقد جعلتني شهوانيتها أتيه. هي لم تعطني جسدَ امرأة جديداً أداعبه، جسداً آخر، بكل اختلافاته الجميلة، لا، هي منحتني نسمة. لحمها يعرف كيف يتحول تحت كفي لكنه يبدولي أنه سحابة كنت أتشبث برغبتي في تقبيلها.

في صلابته وغزارته وفي تأليهه، هي كانت تترك مسافة غريبة غير قابلة للمس. اليقين الوحيد الحقيقي الذي أحتفظ به عن لوسيل هو فمها. ناعم، كبير، حي، ملتهب ومتعطش وفي ذات الحين هو محمر فاقع، لماع، عذب ، منعش ولين أسيل. ثغر لوسيل يؤجج النظر والهيجان دون أدنى شك. حدة الريح كانت لوسيل، وهي التي كانت منها تتناسل، دائماً، شلالات الضحكات أو التراتيل المبحوحة. هي الكهف البدائي، الحلم الأقدم للإنسان، هي المغارة وهي المنبع، هي الهوائية والليلية وهي الموجة القمرية الساخنة بالرغبة ملء حضنها. أوه! لوسيل! بأي كيمياء قدرت على تحويلي دون إرادة أو عمل إلى نار، إلى نفس متوهج في فخ الحجز؟ جعلتني جسراً، سجيناً ليس لدي القدرة على تجاوزه.

تهت وتسكعت فيك معلقاً خارج الساعة وكنت الماء الذي تستحم فيه البطارية والقوس المحدب للجسر. أنت خطوة الهناك البعيد، نحوالعالم الآخر. كنت أنا السكون بينما كنت أنت المستقبل.

ثم قلت بيني وبين نفسي، يا لوسيل، إن نزقي لن يفيدني في شيء. ما جدوى حلمي بالاقتران بك وبالتالي جعلك تابعة؟ تخيلي غيمة في ركن ما

من السماء مشدودة إلى خيط بيد سيدها! روحي، تطوري، حلقي كما تقتضي رغبتك ودعيني أفكر كما أشاء. إن كان كل ذلك لا يعدوأن يكون مظهراً، فقد لا تكونين غير فكرة وهمية للجمال. وإن لم تكوني غير مفتاح يا لوسيل؟ هيئة من ضوء، عالمة، مجازاً مجبراً، وعداً؟ فذلك يظل دائماً هو الحب الذي يقطر من يراعي وأقسم لك أنه دمي الذي يوقع الخط. ياه ماذا حدث؟ هل تراني تغيرت؟ وصافياً رائقاً هكذا، سأكون ميالاً إلى قبول أنه حتى هذه التي أعشقها لا يمكن أن تكون لي؟

مفتاح أنت يا لوسيل، تفتحين عيني على عالم أجمل. اسمعيني جيداً، فتنتك لي، كما لوأنها شعاع قمر ينجز عمله بداخلي خفية عن الأعين.

عندما غادرتني، رائعة الجمال، كنت أقول لنفسي حينها، وكنت أقول وأنت تتلاشين إن حلمي بك سوف يكون أكثر روعة وبهاء. لا تنسي أنني سأكون قريباً منك. تدركين، على ما أظن، قدراتي على التجريد والتخييل وتذكرين كيف كنت أزورك في بعض الأحيان. تعلمي إذن كيف تبصرين الحركة التي تطوقك في العتمة وكيف تميزين في ضجيج الشمس التماعات غريبة. إذا كان من الممكن أن يروقك هذا الحضور اللامرئي، يا روحي، سأكون مترعاً بالفرح.

في هذه اللحظة، لا أدري إن كنت أنتظرك. بداخلي دائماً تأرجح بين الحب ومحبة الحب. أرأيت، أنا أرسم. أرسمك بكلماتي، ألعب. هونفس حلم اليقظة الذي يلازمني آناء حضورك، إن شئت، لكنه إضافة إلى ذلك على اتساع مجد ومرهق في آن. الفن عمل بما أننا نصل فيه إلى حد الحفر. أنت لا تبالين بذلك، أليس كذلك؟ أنت الكون ببساطة وكل ما عداك

لا يعدوأن يكون استطراداً. من أسلوب كلينا في الوجود، أو في الحياة، بكل صدق، أنا لا أعرف أيهما الأكثر إيجابية وتماسكاً أو الأكثر عقلانية. أيهما تؤثرين. لننتق، في كل الحالات، الأكثر إثارة ـ ولا أدري لماذا! ـ هوأن نلتقي ونكون قريبين. هل يمكنك تخيل ذلك؟ مركبتان نحن، وحيدان منعزلان متوحدان، عدم شبحي يتشابك، كيانان مستقلان وغامضان في أنحاء الوحدة. صرخة في الغمام السديم، نظرة منفلتة من درابزين الجسر وتلك هي المعرفة. ألقي بالمراسي، الأسلحة عند القدمين والعبارات تهدمت. وها نحن نتصنع عطباً للانعزال في عرض محيط الوجود غريب الأطوار، مقترنين بمشيئتنا دون حد معلوم، قرصانيْ التقاء. قطعاً، نحن لسنا غير لصين بحريين، طفلين لا يتقنان غير النهب في الدروب الترابية.

يبدولي، من حين لآخر، أنني لا أسمع غير صخب هيجان الموج الأعمى والريح العنيد العتيد. هل سيكون لسباقنا الثنائي نهاية! هل تراني تهت من جديد في مجهول قيادات هذا المركب المجنون؟ اسمعي! أنا أعشق الإبحار وحيداً حتى وإن كان يجب علي اصطحاب صورتك في ذهني فإنني سوف أواصل. هل سأكون أقل وحدة؟ شكراً لك يا لوسيل، شكراً لأنك ما زلت تؤثثين رؤاي. ترى هل يهمك هذا؟ من أنت حين تكونين وحيدة؟ هل تحسين بالوحدة أحياناً؟ الخواء، مثلما يقولون، هل يملأ قلبك بصمته الأسود النهم؟ أنا أحب ذلك الفراغ. في الليل عندما أتمدد على الأرض، ولما تموء الرياح بلا ضجة بين أغصان الأشجار المذهولة، أكون هناك المقتنص. أتقصى وأرتشف بتعطش كل علامات الكون. تلك التي في العادة لا يمكن أن يتذوقها الإنسان. أحيي النجمة الرسامة، أترجم أسرار الغيمة المسلوخة من القمر. إذن القمر، هل تتصورين كم هو قريب مني! ذاك بسيط جداً. هوليس بالنسبة لي ذبالة نور مصباح معلق هناك، في قلب

السماء. القمر يسطع وأنا بذار متلألئ منثور في أشعته. الأمر غريب فعلاً بيد أن القمر بالنسبة لي يمثل الماضي وهويبدولي دائماً الذي يحكي قصة الأزمنة كلها. يحدث أن أسر بيني وبين نفسي أنني أعرفك جيداً لكوني أعرف القمر وأحسه قريباً جداً.

لا، أنت لم تختفي. كيف تستطيعين ذلك! حضورك حقيقي. قد لا أسعى إطلاقاً إلى رؤيتك. بيد أنك النقطة الثابتة والوحيدة في هذا الكون المصلوب. اللقاء، نقطة تقاطع الأذرع الأربع المسمرة في آفاق العالم. أنت، حلمي، أنت مرجعي الأوحد خارج الفضاء وخارج الزمن، هناك حيث كل شيء معلق كي ينوس بإرادة قوانين خفية... أنت سفري وأنت الإرساء والمرسى.

لا يذهب بك الخيال، يا عزيزتي، أنك لا تعدين أن تكوني ذريعة، مبرراً لعدم صوابي الراكض. أنت، وتأكدي من ذلك، أفضل جزء في، والأكثر حقيقة هو أن نظري عدل مذ رأيتك. هذا الجزء خاص بك، بجمالك الرشيق، وهومع ذلك مصبوغ بلون خفيف للمطلق. أريد أن أتحدث عن هذه العروة التي تمثلينها، هذا الحبل السري الخارق والشاهق المتعالي والذي لا يتجلى إلا من خلالك.

أن ألتقيك فذاك هو الاكتشاف وذاك هو الأمر المسلم به. عارفاً الآن، مستنيراً، أذهب معك وأنت إلى جانبي حتى وإن كنت تشكين في ذلك.

الفصل الأول

في ذلك اليوم الذي رجعت فيه إلى ضيعة لافونتان * اخترقني صَبْرُ بيئتها وزخرفتها.

بما أنها الأسيرة في جليد المواسم الساكنة، فقد كان ريف الجوار يتمزق. كانت الرؤية دائماً تهبني على السفح المقابل لطريق قدومي، هناك حيث الضوء الأصم للصباحات الصافية، خمائل أشجار البلوط العالية. طفلاً، كنت هناك، أجدني أخترع الكون الذي يخلقني ويشيدني بالمقابل. في باطن الوادي، يزحف الطريق الرقيق الملتوي المتناسخ عن المجرى المائي الذي حفر في التضاريس حتى الهضبة كي يربط تلك البضعة من المباني بعيداً عن ملتقى النهرين الذي أغرى الإنسان بالإقامة هناك في الأعلى نحو المنخفضات.

أي زمن، كان لا يفتأ يسهر ويحض على التقائنا؟ أي عصر كنا قد تقابلنا فيه؟ هل تمرغت سحب الغرب الكثيفة فوق البلاد وهل خططت النجوم

---

* ضيعة لا فونتان: تدعى اليوم قرية أونغل: (Le village d'Ongles Alpes-de-Haute-Provence) وتتكون هذه القرية من ثماني ضيعات عاصمتها ضيعة لا فونتان التي أخذت اسمها من الينبوع الوحيد الموجود بها. يقع إقليم أونغل على هضبة بجبال الآلب بيروفانس العليا (الهوت بروفانس).

والكواكب السيارة، من جديد، السماء السوداء والنقية؟

اليوم، أنا لا أعرف ماذا تعني تلك الاختلافات.

ما جدوى السعي وراء تذكر هذه التجليات وأنا قد احتفظت بداخلي بذلك الشعور الشفاف الصافي الذي سكنني؟ ذهبت بمفردي إلى ضيعة لافونتان في ذلك اليوم. لعلني فعلت ذلك ذات صباح، وأقسم، أن ذلك كان لرغبة عارمة ألحت علي في الهروب من رفقة بني البشر ولكوني أحسستني بحاجة أكيدة لالتهامك أنت والعقيق* الجاري.

من الممكن أن تكون الفكرة ذلك القليل المنحرف، تلك السحابة، تلك القطرة الشقية، بسبب رؤيتها لي على شكل شبح ساكن لأماكن حبي الأول. ومع ذلك، أبداً ما كان ثمة زاهد مرتحل مقتنع ببراءته. أية جناية - ماذا أقول؟ - ما كان يغفر لأية زلة صغيرة الحث على تلك الرحلة. وحده، في الأول، التوق الذي نحكم بأنه يحل له إن أمكن أن يجعل الذكرى تزهر من جديد. كما أيضاً، ودون شك، إن كانت الإرادة أقل صفاء فإن الواقع يتلف الصورة المفرطة في جمالها إلى حد التدويخ والانتشاء كما أنه يجعلها جافة ومعيبة.

لوسيل كانت مبرر الفكرة الأكثر نقاءً - افهموا، الأكثر أثيرية، الأكثر فكاكاً من الجسد، الأكثر استثنائية - التي امتلكتها عن الحب الأبدي. أحببت صورتها / في صورتي، أنا، التي أنجبتها. كنت أبوح لها بما تمليه علي الفكرة، والأسوأ أيضاً، كنت أعتبر الحد النهائي لحبنا الاتحاد، الذوبان، والاندماج الكامل لكيانينا. كل الأحداث المتلاحقة المنجرفة عبر ألفيتين من عبادة العزوف، من فوبيا كل ما هو جسدي شهواني

---

* العقيق: جمع أعقة: الوادي وكل مجرى مائي شقه السيل قديماً فوسعه.

ومن الفتنة والانجذاب المميت. هي تدعى لوسيل، قلت لنفسي، وهذا الاسم المنير يجعل منها بالطبع ملاكاً، حلماً مادياً في الظاهر بواسطة ذلك الوجه الرقيق والغائب، بظل ابتسامة على الشفتين. مهموماً، أحتسيها وأنا أرشف على وجنتها عطر رؤاي. «أقسم لي أنك تحبني» بيد أنها تريدني أن أقطف لها النهار.

أوه! كنا نقّبل بعضنا وكنا نتلامس قليلاً ونحن مسترخيان. تمشينا كثيراً، الأيادي متشابكة والآذان محمرة. مشغولين كنا بسماع كل منا لهذر الآخر أو بقراءة نبرته في انتظار أن نكون واحداً بيد أن العمل الحقيقي، فعل الحب لا يبدأ إلا آناء الافتراق. وحينها أغدو ملكاً للوسيل، لرائحة حلمها، لصوتها البلوري، لمواثها لفرط اللذة ولضحكاتها الشبيهة برنات القيثارة ١ (الهارب ـ ٢). كنت أخلق الحياة كما يليق بالحياة أن تكون.

والآن ترى كيف أصبحت لوسيل؟ ترى هل غضنت السنوات جانب نظرتها وعينيها؟ هل عبأت بطنها ووركيها؟ هل تراها تغتاظ أحياناً من ضجيج الأطفال المتشبثين بحذائها أو بالرفيق المثقل برتابة اليومي والذي غلبت عيوبه ونقاط ضعفه سحره الفتان سابقاً. أنت لا تستطيعين إطلاقاً أن تمحي من ذاكرتك كل ما عشناه. ذكرياتنا معاً ستظل تجرجر نفسها في ركن من أحلامك تماماً مثل هاجس واثق وعذب بل لعله يكون مفرطاً في مثاليته.

لقد وفدتُ هادئاً دون أحقاد. جعلت مرارتي تتناثر في الطريق. كل ما أخفقت فيه، كل خساراتي، كل إحباطاتي، كل ما لم أعد أريده غدا ميتاً، منثوراً في الرياح الخسيسة. نَفَسٌ وحيد أعرفه جيداً يحييني الآن. هو ـ وأنت تعرفين انجذابي لكل ما هو مجاز ـ مثل ظمأ قد ارتوى أخيراً، طاقة، أو قوة سأستطيع أن أحوز من خلالها وبعد مراوغات كثيرة

على الرأفة. أريد أن أشاركك السر. أنت تمتلكين نفسك وأنا أسخر ممن يدّعي أنه يمكن أن يمتلكك. أين أنت؟ البلاد تبدو لي مخضوضرة ومتصحرة. يجب أن نكون اثنين فقط عند التقائنا، وفي الوادي الذي هو كل الكون، سنعيد تشييد إنسانيتنا. كل هذا يا لوسيل، كي أقول لك فقط مَن كنتُ عندما وصلت.

الفصل الثاني

«قطرات الماء هذه، تعلن عن المطر!» ذاك ما قاله الأب جانجان ضاحكاً وهويتململ زافراً منذ مدة غير قصيرة على عتبة الفندق. هل تراه سيوصد الباب؟ السماء الباكية، بالنسبة إليه دائماً، هي مرممة الطرقات، هي الهدأة أثناء العمل. وفعلاً، انسكبت السماء وفاضت. . . أغرقت البلاد منذ العشية وحتى الليل.

من وراء الكنتوار، وبضحكتها الوديعة المرتسمة على ثغرها، كانت آن ترقبه، مبللاً، وهويحث الخطى نحو نار المدفأة خلف الطاولة الوحيدة.

بحركة متثاقلة، وضعت آن ممسحتها أمامها، ثم بارتياب، سألت جانجان:

ـ هل أنهيت الأشغال خلف شارع موف؟

ـ أنت تمزحين! أولئك الخاملون عازمون على جعل الأمر يطول، وبعدها. .

ـ ماذا أيضاً؟

ـ لا أعرف. أخيراً بدا لي أنه يقال إن الجمعيات لم تعد ترغب في الدفع.

ـ فهمت.

مُهْمَلاً من وراء فنجان قهوتي، كنت شديد التوق إلى سماع أي كان

يذكرك أو يتكلم عنك، هنا، و، غريباً كنت أريد ارتشاف أي محادثة تخصك بنهم. ما هم! سوف أجدك يا غيمتي الصغيرة.

ـ هل كان عندك حرفاء اليوم؟

ـ فقط، ذاك السيد، هناك، والذي يبدوأنه قادم من مكان بعيد.

كان واضحاً أنه من المفروض علي أن أنجلي من قهوتي.

ـ أنا قادم من مدينة لا بوس*. هي مسافة سير لا بأس بها على ما أظن.

عند هذا الحد من حديثي، أصبح من شبه المحتم علي أن أحكي أيضاً عن سبب قدومي إلى هنا.

ـ أنا عالم حشرات وعندي أبحاث سأقوم بها في المنطقة.

ـ آه!

لقد أتقنت لعب الدور. صارا الآن يحدجانني بنظراتهما من تحت عيونهما، نظراتهما المنفلتة والتي تكاد تكون عدوانية. كل ما كان يجب فعله هو استعمال كلمات ماكرة، حاذقة وصارمة!

رجعت إلى هدوئي الآن. ضحكت بيني وبين نفسي يا لوسيل وعدت لأحلم بألوان هادئة رقيقة تكاد معالمها أن تشرف على الغياب.

بعد عشرين عاماً، كيف تراني أبدو، كامناً، جاثماً، متقوقعاً بالقرب من مدفأة الفندق، في هذه القرية، في هذه البلاد التي كانت لي والتي ما زالت تؤويك وستظل إلى الأبد؟

---

* لا بوس: La Beauce : هي منطقة فرنسية طبيعية، فلاحية وخصبة جداً تقع جنوب غربي العاصمة باريس.

سددت الثمن وغادرت. باقة من المرارة تزركش روحي. ما همني كيف أبدو ولا كيف يراني الآخرون ولا لماذا يرونني كذلك. أنا مندمج في حلمي وذاك هو أهم شيء. هل تســمــعــينني يا لوســيل؟ هؤلاء الناس هم غرماؤنا. هم لا يقدرون أن يروا فيَّ إلا ذلك الذي لا يمكن أن يأتي من لدنه غير الكدر. ذاك الذي يأتي باذراً الشقاق والفرقة في الزواج !هل لأن هذا الاتحاد هو وحده الشرعي يحدث ذلك؟ الحب لا يعبأ لهذه القوانين.

ألا يستطيع هؤلاء الناس إدراك أن الشيء الوحيد الحقيقي هو اللقاء الأول، الاكتشاف والوعود السرمدية اللانهائية عندما تنتهي فعلاً كل وجوداتنا بالتلاشي؟ ورغم ذلك، فنحن لا نقدر أبداً على العيش معاً في عزلة ووحدة يا لوسيل. سنتظاهر بذلك وحسب إذن؟ ذلك هو التدبير الوضيع اللازم الأوحد.

الفصل الثالث

يقطن العـجـوز مـارزن دائمـاً على هـامش السـبـيل، في قلب غـابة السنديان، قـرب نهـر الأرجـان. عـرفنا ذاك الرجل، عندمـا كنا نـذهب سراً، ونحن طفلان محاولين إخفاء حبنا حديث العهد. كان كثيراً ما يستقبلنا في بيته الخشبي. يتحدث معنا قليلاً بكل لطف وبلا تكلف قبل أن ينسحب وينسانا، لبضع ساعات، ولهانين، مدلهين من شدة الفرح أمام صوان المدفأة الغرانيتي.

يا له من رجل غريب ذاك الذي كان يشاركنا سرنا! ذاك الوجه الخالي من أي زمن، يمكننا القـول ومن كل مكان، في عـينيـه كـان يأتلق المكان الآخـر البعيد. الكائن المتفرد، النزيه، كان ميتاً. لم أعرف ذلك إلا خلال إحدى مساراته. مارزن كان من العالم الآخر. يجب الإقرار بكونه يحيا على الضفة الأخرى للنهر. ما تنبس به شفتاه كان جديراً بالحب. يأتي في نبرة ساخنة رنانة، تكاد تشبه الرعد هي التي تعرف كيف تكون هامسة. إن ما تبوح به شفتا مارزن من تلك الأشياء التي لا يمكن نقلها لكل قادم أو مار. مارزن! أنا لا أقدر إلا أن أتذكر كرم ضيافتك، لطفك، بشاشتك وصفاءك.

ذات مساء، وفي قتامة إحدى ليالي الصيف، كنا قدمنا مبتهجين كي

نزورك ونحمل لك قليلاً من الحطب، بدوت فجأة صارماً، ودون أن تلقي إلينا بنظرة واحدة، قذفت في وجوهنا: «ثوران مربوطان إلى قلس[1]، ها هما يجذبانه. إن روحيهما ستفيضان. انظرا إلى المعجزة. الطريق العاتم سيكون طويلاً بالنسبة لكما لأنه بارد زمهرير. ما إن يفك رباطكما حتى تطالبا بنير[2] حبكما. بيد أن . . . » ركّز مارزن نظره على النار في الموقد. رفع إحدى يديه بحركة يمكن أن تعبر عن الرعب، عن الحتمية أو ربما عن التيقظ والاحتراز. في الخارج، كانت ريح مختلفة قد بدأت في الهبوب. قمنا، لوسيل وأنا، متضايقين قليلاً، مرتبكين ومشغولي البال أيضاً. تركناك، يا مارزن، ونحن نهمهم بعذر ما، لكنك، ومسبقاً، لم تكن مستعداً إطلاقاً لسماع أي شيء.

تأخرنا في الغاب المجاور قبل أن نلتحق بجسر الحلم[3]، تلك القنطرة الصغيرة جداً، الرائعة الجمال والعابرة للنهر. أتذكر. كان مزاجنا أسود كالحاً بسبب ما لم نقدر على إسكاته ونحن نحث الخطو على العَبَّارة. كلماتك، الثقيلة والغريبة، يا مارزن، كانت تخب في رأسينا. « ـ احلف لي إنك تحبني. ـ أحبك. . . إنما غداً. . . ؟ ـ اصمت! ـ لا، ذلك لأنني أحبك. » كم كان ذلك أخرق، أبله وفاتناً بيد أن موسيقى النهر، وحدها، الصقالة بلا نهاية للغرانيت كانت تعزف ملء صفائها.

1- القلس: جمع قلوس وأقلاس، حبل ضخم تسحب به السفينة كي تربط في المرفأ.

2- النير: هو المقرن: الخشبة المعترضة في عنقي الثورين بأداتها.

3- جسر الحلم: Le pont de rêve: جسر الراف كما تنطق بالفرنسية.

الفصل الرابع

«آه! ها أنتَ هنا؟ هذا يبهجني، ادخل!» الرجل العجوز البسيط دائماً، الحميم الدافئ، الماكر يتلاشى خلف الباب كي يفسح لي الطريق. وكأن شيئاً لم يحدث، لم يندهش الرجل من عودتي بعد غيبة طويلة ما جعلني لا أباغت بتغيّره الطفيف. كان مارزن مبيضاً أكثر فقط ولا يكاد يبدو محدودباً. لاح طويلاً وباهر الجمال. انتصب، الساق على قاعدة المدفأة والمرفق مستند بلامبالاة على العارضة العتيقة، الأسكفة. نظر إلي برشاقة ودون أي تكلف، ومتغاضياً بالإضافة إلى ذلك عن كل ما يبدوعلي، كي ينبش منقباً في أعماق روحي. عينه الزرقاء بلون البحر كانت دون قاع لكن نظرته هي التي كانت تبلبل الروح، تحيرها وتعكرها وذلك لأنه يتوجه إلى المجهول الذي يسكننا. عندها غمرني الإحساس بأن العجوز يعرف وأنه من غير المجدي أن أحكي له عن التماسي.

صمت مارزن. أخرج كأسين وقارورة. كان صوت الخمر وهو يسكب يشدو كما لو أنه غناء نبع وكان صدى رنينه مذهلاً بين جدران البيت الخشبي. هيا! قال أيضاً وهويرفع مرفقه. وشربنا بانتشاء. كان الصمت لا يزال مخيماً عندما قطعه مارزن قائلاً بعد أن حشا غليونه الضخم: «هل تعرف، لقد تزوجت الصغيرة، من محاسب.» كلّمني بنبرته المحايدة بيد أنه

كان يبدو غائباً، في رحلة.

مسح بعفوية شاربيه الضخمين اللذين كانا يسدان فمه. «أريد أن أراها يا مارزن، وحدك من يقدر على فهمي. أنا لا أعبأ بمن يكون الذي تعيش معه تحت سقف واحد الآن. لا يمكن استعادة الوعد. كنتُ شاهداً. حدثني عنها. قل لي كيف حدث ذلك...»

رفع العجوز أنفه. نظر إلي ملياً بمحبة ولطف. إنه فعلاً، النهر هذا الذي أسمع خريره من وراء البيت الخشبي، والريح التي ترج أشجار البلوط. اللعنة! جَيَشان الزمن القديم يصاعد في أوردتي.

«يبدو أنك تريد أن تندلع الحرب هنا. ولو! الحب، الحرب... ذلك هو الغيمة والمطر، أليس كذلك؟ أستطيع أن أجعل لوسيل البريئة تأتي إلى هنا. منذ مغادرتك لم أرها. أنت تعرف، النساء عديمات الذاكرة... ربما أكثر من رجالهن، في آخر الأمر. أنت تهذي، ذاك من الأكيد. لكن الحب والهذيان لا يحققان اتفاقاً رديئاً أيضاً. ينبغي القول أيضاً إن لديك في عينك ثقة ذكورية. أفضل أن أراك تكرس هذه الطاقة في إنجاز مستقبلك عوضاً عن محاولة تبديل مجرى النهر، عن نقل الجبال. ماذا عرفني؟ لماذا أشغلني بهذا الاتفاق!»

وفي الحال، ضحكنا من كل قلبينا بينما كان الساحر يقدم لي من خمرته اللذيذة. «هل أنت مقر العزم فعلاً أيها العاشق؟ إذن، أنصت إلي جيداً. هذا ما سنقوم به.»

الفصل الخامس

كان المسكن الذي وفرته كي يستقبلنا، لوسيل وأنا، بعيداً، في مدينة مجاورة. لم تغادرني خشيتي من مقاطعة بعض من ذكريات لا يمكن أن يخدشها العطب مطلقاً. يجب علي أن أهب لوسيل مفاجأة الالتقاء بي في كنف التخفي الكامل. كان مارزن يشكل استثناء بيد أن الخفي كان مألوفاً لديه. في ذلك المساء، احتفلنا، لوسيل وأنا، بعرسنا الجديد المبتكر. لقد ظن الزمن أنه سيقضي علينا بعدم الاكتمال. لم يكن ثمة في الحسبان إرادة الحب التي تنعشني وتحييني، ولا وجود شيخ لا يعرف معنى للقضاء في قاع الوادي. هو فقط يحسن مؤازرة الأقدار. هو يتقن أيضاً صنع المطر أو مطاردة الغيوم واصطيادها. «لست غير عكاز!» كثيراً ما كان يقول، دون أن يسمي أبداً ما كان ذلك العكاز يدعمه باقتدار وقوة.

كان ما أعرفه عن مارزن قليلاً جداً. إن لم يكن ناسكاً بالمعنى المطابق للكلمة فهو يعيش الحياة الأكثر زهداً وقناعة وعفة. كنت غالباً ما أراه يكتب، ينجلي من ورشته التي كانت عبارة عن قبو لم نزره أبداً. ما أكثر ما يعود إلى ذاكرتي الالتقاء المفاجئ والسريع الأفول ببعض أشخاص غير العاديين. كنت أراهم، متأبطين مخطوطات أو أشياء ما مصنوعة من الخشب أو الحجر وملفوفة بعناية، في بيته الصغير ذاك الذي شيده بنفسه على أرض

بلدية. يحكون أنه آناء تشييده، ولم يكن ثمة حينها أحد يعرفه، وفد عليه الأعضاء البلديون المنتخبون حانقين، إلا أنه سرعان ما أسر ألبابهم. لم يعد يخطر على بال أي أحد الآن طرده من ذاك الموقع الذي صار مشهوراً، سحرياً ومقدساً، إلى درجة أن الرجل القليل الفصاحة أو لنقل الصموت الكتوم، كان من وقت لآخر ينقذ، بواسطة مهارات وموهبة غامضة، مرضى خذلهم الطب الرسمي أو نساء نبض حليبهن أو زال بفعل تلك الأوجاع المسهبة، المنتشرة والمتوحشة المسممة للحياة. إنْ لم يكن أحد هنا يجرؤ أبداً على النطق بكلمة ساحر ضد مارزن، فإن ذلك يعود لكون الجميع يحترمون، إلى درجة الإفراط، اختيار رجل العالم السفلي لطريقة حياته، أو لأن ذاكرة ما غامضة ومظلمة هي الأخرى تنبجس متدفقة من أزمنة سابقة لعنة منهمرة على السحرة.

أعرف أيضاً أن الشيخ كثيراً ما يذهب عبر الغابة لزيارة بعض أماكن لا شجر فيها أو إلى منابع هو الأكثر دراية بطرقها. مارزن، كما أخبرني ذات يوم، كان يفعل ذلك لوجود أماكن منها لي سولاف*، تساعدنا على أن نكون نحن. في بيت مارزن كانت كل الجدران مغطاة بالكتب. نستطيع القول إن البيت كان مكتبة. مذهب الاختيارية في هذه الكتب يتنافس في ندرة وعتاقة بعض المؤلفات. قليلة هي الأشياء التي لا يمكن أن تتوفر لها بعض الإسنادات أو المراجع في هذه الذاكرة المدهشة.

---

* لي سولاف : Les Sulèves: هواسم مكان في رواية العرس السرِّي . ولي سولاف هن جنيات العصور الوسطى و قد كن يتصفن بعذوبة الصوت والجمال الفاتن لأجسادهن المشوقة. ترصد لي سولاف المسافرين العابرين ليلاً كي يغتصبن منهم المداعبات المخجلة تارة قسراً عن طريق القوة وأخرى بواسطة الترهيب.

عندما سألته عن ذلك الكنز الثمين، شرح لي مارزن بابتسامته الرقيقة الأثيرية أن وجود هذه المؤلفات نفسها، هذه الإنسانية نفسها، يهمه أكثر بكثير من محتواها الذي تريد تبليغه. «ما هو نائم على الورق منطفئ، ميت ومتجمد. أنا أعشق الكلمة الحرة الجارية مثل مياه نهر الأرجن*، تلك التي تتضوع من النبع المتخفي فينا والتي لا يمكن إغواؤها ولا التقاطها أو المسك بها، تلك التي تهمس لذوي القلوب الذين يعرفون أن إدراكهم ليس إلا مرشحاً (مصفاة). ذاك هو صوت الأزمنة التي يعرف فيها الإنسان كيف يرفع جبالاً من الغرانيت دون الاستعانة بأي آلة من أي نوع. تلك الأزمنة التي كان يكفي أن توضع يد على مكان الألم الفاتن والعذب كي يشفى الإنسان. ما ثمة شيء من هذا على هذه الصفحات. وحتى عندما يكون ثمة إشارة، فإن ذلك لا يعدو أن يكون شبحاً لحقيقة تلك الأشياء. ليست الكتابة إلا تشويهاً ومسخاً وهي في الجملة خيانة.»

هكذا كان مارزن يرى مجموعة مؤلفاته الرهيبة. يجب أن تكون هنا لكن ما يتحتم عليها هو أن تصمت. لا ينبغي عليها أن تنطق إلا في حالة واحدة وهي أن تكلّمه بطريقة أخرى مختلفة تماماً.

---

* نهر الأرجن : la rivière d'Argent : ما معناه نهر الفضة

الفصل السادس

اجتاحني اليوم هيجان شديد جعلني مضطرباً ومحموماً. ملتهب الرأس، جاف الفم، وندي اليدين وجدتني أتفرغ لتبديد ذاك المزيج الغريب من الابتهاج الرصين والغم الأخرس المكتوم. عند منتصف الزوال، غادرت عبر دروب المنطقة وأنا أكثر هدوء وجبهتي يغسلها المطر. يا لفتنة الخريف! وأنت أيتها الأشجار، يا أخواتي، هل لكن أن تهبن لفؤاد نقي مجدَ كل ما يتوق إليه! لقد بسطت أجنحتي طوال عدوي. أحسست أن الحياة تتجسم، تقوى وتتسع تحت صدري. بدا لي أن نظري صار شاسعاً أيضاً. يداي النديتان أدركتا أن أصابعهما الغريبة المتحركة امتدت في الفضاء على شكل هوائيات مجهولة، وفمي المفتوح غدا القاطف للكلمة التي لم تخلق بعد عند عبوري فوق أشجار السنديان. سمعتك في تلك اللحظة كأبهى ما يكون يا مارزن.

ذهب النحاس الذي يرشح من أشجارنا، زقزقة العصافير التي أبطلت الحظ وأطفأت الصدفة وهذه الأرض السوداء الكاسية لنباتات حمراء، تلك الغابة تتقدم نحوي. أنا الغابة، شاعراً وفاقداً لوعيي، أسير نحو الصعود*، نحو بدء آخر. الحياة الحقيقية! حدس ساطع كالبرق يجعلني

---

* الصعود : La dormition تعبير لاهوتي كنسي يقصد به عملية الانتقال إلى السماء والتي تجعل من موت القديسين مجرد نوم إلى حين انبعاث الجسد من جديد .

أستشفها. احك لي أكثر يا مارزن عن فن قراءة ما بين الأسطر، قراءة الأسطورة. علّمني أسرارك يا مارزن!

عند وصولي إلى لي سولاف، كنت رجلاً آخر. بدا لي أن مسيرة ذات خطوط سرية كانت قد ابتدأت. بُحتُ بذلك لمارزن الذي طمأنني وهو يبتسم بكثير من حنان انفتح له قلبي دون شك، لكن عيني ظلتا منغلقتين. ينبغي علي عيش ذلك الانتظار والمحافظة على الأمل. ضحك مارزن من جديد. زأرت نار متوحشة في المدفأة، في انتظار الجمرات المتوقدة التي سيعطينا إياها كي نشوي قطع لحم العجل التي حملتها معي. كان نور الوجاق غير الحقيقي يغمر وجه الرجل الشيخ فيجعله فتياً إلى حد التفرد. رأيته على هيأة لا تليق بغير الحلم. مد لي مارزن، وقد جعل الشره عينيه جاحظتين، خمرة ساخنة هو وحده الذي يعرف طريقة تحضيرها. كرر مارزن «مصفي المحبة من كل الشوائب». ضحك. صارت روحي مغتبطة حد الانتشاء حتى قبل أن أشرب. تمتمت: «هل.....» قاطعني الساحر: «يمكنك تصور ذلك! من الغريب فعلاً أن لا تأتي لزيارتي آناء تناول المشهيات. لعلها فقط ما زالت تجهل توقيتها.»

بدا مارزن متجهماً. في الحقيقة، أنا أحس أنه يقود إدراكه خارج الجدران. أحسست كما لو أنه اختفى فجأة. راقبت الرجل وقد تقطعت أنفاسي. كانت تقاسيم وجهه تشي بعدم اكتراثه وكانت عيناه المفتوحتان تحملقان ملء وسعهما. كان كأنه، ووفقاً للعبارة الصحيحة، على سطح القمر. رغم ذلك لم يكن جسده في حالة استرخاء بل هو كان على العكس من ذلك تماماً. جعله التوتر الذي كانت تترع به نظراته يتجلى أمامي متيقظاً وذا إرادة لا تقهر بيد أنه ما زال بعيداً، خارج المكان. أمسك بقدح الخمر

المدخن بين يديه الاثنتين المرفوعتين إلى ما تحت أنفه. كان الدخان ساكناً لا يتحرك ورأيت مارزن حابساً لنفسه. استحوذ على الغرفة صمت مريع. النار التي ما فتئت تزيد توهجاً أقلعت فجأة عن زئيرها هي الأخرى. هوت الريح وارتمت مثل عباءة خفية يكتنفها الغموض على لي سولاف التي كنت المتفرج الغر، المتوحش، والمحظور عليها. هذا الحشر للزمن بين قوسين، هل تراه كان موجزاً أو طويلاً؟ لم أعد إطلاقاً متقيناً من أن هذا السؤال يحمل معنى ما. كان دائم الإلحاح إلى حد أنني لم أعد أقدر على البقاء لامبالياً مدة أطول إزاء هذه الآية. وانخرطت في الحلم.

هناك في المرتفع، خارج البلدة، قطعت لوسيل ضيعة البلوط والحيرة والارتباك يغمرانها. هي، لوسيل، ولكنها رغم ذلك لم تكن هي. كيف يمكن شرح الأمر؟ لقد كانت تحولاً للوسيل. منحتها السنوات قواماً ووجهاً بهيين. بدت لي رائعة جداً. صلابة كليتيها وقفا رقبتها جعلاني أعرف أنها خاضت صراعاً عنيفاً ضد إكراهات وقهر وضغط ما. عيناها المائيتان الغامضتان كانتا تعجان بهيجان غريب وطريقتها في فرك يديها على فستانها جعلتني أخمّن بأنها فريسة لبعض الغوايات. لم تكف عن النظر إلى ساعة يدها، مثل ظاهر حساب، بيد أن ابتسامة رقيقة كانت ترتسم بين الحين والحين على ثغرها فتجعلها تبدوموطدة العزم. هل قرأت اسمي على شفتيها؟ لا أقدر أن أجزم بذلك تمام الجزم. بيد أن كلاً منا كان ملكاً للآخر.

ولُبّي النداء فتوجهت لوسيل، خلال بضع خطوات وقبل أن تعرف قرارها، نحوالسولاف.

الفصل السابع

عندما تلاشت صورتها في الحلم، وعدت بالقرب من رفيقي، كانت المدفأة تطقطق من جديد وكانت الريح قد عادت إلى عدوها. ينظر إلي مارزن، هادئاً ومبتسماً، وهو يحتسي الخمرة الساخنة باشتهاء. «هي الأخرى تنزل عبر الغابة، قال هامساً. ستتقن هي أيضاً الإنصات إلى هوائيات الأشجار في طريقها. الغابات تعرف كيف تكون مهذارة كما ينبغي. سوف أحكي لك.»

كانت الطاولة قد هُيئت لاستقبال ثلاثتنا وكنت أؤجج الجمرات تحت المشواة، عندما انتصب مارزن بخفة وأسرع كي يفتح لها الباب.

كانت عيناها مخضلتين بدموع ناجمة عن قوة هبوب الرياح وكان شعرها محلولاً، هكذا بدت لي لوسيل! ما زالت بصدد تقبيل الشيخ وهي تتمتم بأعذار تبرر عدم زيارتها كل تلك المدة الطويلة، عندما رأتني. ظللت مقرفصاً أمام الوجاق دون أن أتحرك تماماً كما كنت قبل أن تأتي لوسيل. إن كان جسدي يرفض فعلاً تطبيق كل الأوامر التي أوجهها له، فإنني كنت قد عزمت على أن أغلق فمي تقريباً. كل شيء انقلب حينها. سمعتها تصرخ باسمي، بعد مائة موت وانبعاث. ارتمت في الحين عليَّ وكلها حب وجعلت تقبلني وهي تناديني من جديد. كانت نظرات كل منا مثبتة على الآخر ومثل

تلك الجمرات، لم تكن يدانا المتشابكتان الواحدة بالأخرى أقل حرارة منها وكان قلبانا المتعانقان لا يتوقان إلى غير توحدنا. لماذا هذا النشيج؟ لم هذه التأوهات؟ لمَ يلتقي الوجع والسعادة بكل تلك الشراسة في ذات الآن؟. لم نعد غير جسد واحد للفجر اتحدت فيه الذكورة والأنوثة. كنا نهمهم مثل ثملين بفيض من الهواء النقي.

تنحنح مارزن الذي كان يبحث بلامبالاة عن أحد الكتب، قبل أن يلتفت إلينا، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة فاتنة وهادئة، معلناً: «لقد جعت. وأنتما، ألم تجوعا؟»

هذا العشاء كان من أغرب أحداث حياتي. أحسست كما لو أنني أدركت العالم الآخر، جالست أمواتاً أعزة وشاركتهم وليمة. الروح، الجمال والحب، كل ذلك يقترن بالحلم، بالسحر، بالشعر، أوبالمعرفة والقمر والشمس. تمتع كل منا بحضوره لدى الاثنين الآخرين. لوسيل وأنا كنا عاريي الروح وكان مارزن الزئبقي، مارزن الحكيم يتذوق بتلذذ رحيق اتحاد هذين الشطرين اللذين كانا قبل قليل مشتتين، مبددين.

الشيخ العجوز يعرف أنه لم يكن لدي أي تخطيط فيما يخص طريقة خطف لوسيل. ومع ذلك ينبغي علينا أن نحترز مما كنا بعيدين عن تخمينه. قرية صغيرة بالمرصاد، زوج محاسب، مالك شرعي يمنعنا من أن نتحاب هكذا دون تعقيدات. ماذا علينا أن نفعل؟ نهرب؟ مارزن وحده هو الذي يقدر على معرفة ما يجب علينا فعله. لكنه يترك لمجرى حبنا الذهاب ملء فورانه وعصيانه، مثلما يسبح النهر المجاور في مضجعه الذي حفره.

بدت لوسيل مشتعلة. شعرها، نظراتها، وجهها كتفاها ويداها، كثير من اللهيب للحريق ذاته الذي يضنيني ويمحقني. كانت حارقة وهوائية

بحضورها. جلستها معنا إلى هذه الطاولة لا تنفك تذكرني بالنار دون هوادة، بالحياة والفتنة، بطريقة وجود بارعة ورصينة في هذا العالم. كنت غالباً ما آخذ يدها كي أتأكد من أنها ليست بصدد الاحتراق جسدياً. عيناك، يا لوسيل، جسور أبحر منها وبواسطتها إلى ما وراء هذا العالم. الحمى، نار من صنف آخر، تملكتني إلى حد الذوبان فيك. وأفرغني من كل شيء وأتيه في أحاسيس صميمة حادة للرغبة، تجمع، حيث لا قاع، الفطنة والمهارة بأنواع أخرى من الظمأ. وأعود إلي خافقاً، لاهثاً وراضخاً لصورتك في حين لم تعودي إلا هبوباً، جوهرا للرياح المجنونة، عشقاً وذبولاً!

لا شيء من قبل، لا شيء أكثر. هل هي السعادة التي تجعلني أتمتم وأختلج بينما روحي المريضة تبحر، نبضاً نبضاً، ملء حيويتها وحريتها وانتشارها نحوأقاصي الممكن؟ خذيني إليك! هبيني من لدنك حياة! امرحي، جازفي وتأهبي!

كيف صار مارزن؟ الكرة الزجاجية، جنيات السولاف يسترحن على مقربة من الأرض. النهر يناجي نفسه ملء حميميته. العصافير الصارمة العبوسة أو الرقيقة تتسامر كما هي عادتها دائماً في الأنحاء. لكن من الأكيد أن العالم، رغم كل ذلك، قد تغير طبعاً. من أقات النار في الوجاق؟ أتراها ما زالت ملتهبة أو أكثر اضطراماً أم أن الزمن قد انكسف؟

بدأ الليل يوشك على الانطفاء، وصارت لوسيل ترتجف. ولفرط بهجتها التي تكاد تتحد بالألم المتوحش، أصبح مواؤها خافتاً ونادراً. أضحت التنهدات الطويلة، الآن، تخدش عرسنا السري.

قالت بصوت خافت: «أبداً. . . لم ألعن انبجاس يوم جديد بهذه الطريقة

أبداً. تعرف؟ الرعب، ذاك الصمغ القوي للروح يلوث قلبي. أنا واثقة من أنك لن تحقد علي بسبب رجوعي إلى بيتي. ماذا سأقول له أنا التي لا أقدر أن أقول شيئاً. كم هي بائسة أوبتي إلى زنزانتي! ما أتعس أن يكون هذا الحبس نفسه على قدر كبير من المجازفة! دعني أرحل يا صديقي. عندما يحل الليل من جديد سوف أعود. دعني، أنا ذاهبة!»

ذهبت، هكذا، قبل أن يبدد النور العتمة في حين انزلقت عبر بعض الدروب التي حملتني نحو نهر الأرجن كي أنصت طويلاً إلى هذيانه وتيهه وهو يخرج عن مسيله.

الفصل الثامن

كان مارزن في لي سوليف عند رجوعي. الرجل، الجالس على مقعده أمام المدفأة، وعيناه نصف مغلقتين، كان يبدو وكأنه يحادث النار عندما ولجت المنزل. جلست بدوري بصمت وراءه بالقرب من الطاولة.

«هل أنت عارف بما تبغيه في النهاية؟»

وينتزعني السؤال المباغت في عنف من خدري.

ـ رغم ذلك ليس ثمة غير حلين يا بني. إما أن تقتنع بذاك الفعل الأخرق فيما مضى من الأيام وفي حياة لوسيل، أوأن تحاول أن تجعله الخالد الذي لا يضمحل. مما يعني أنك مطالب بأن تؤدي شغل تيتان*.

ـ ولماذا تتحدث عن الشغل عندما يتعلق الأمر بالحب؟

ـ لأن العمل ليس دائماً مهمة مضنية كما أنه ليس سدى إلا في حالة

---

* تيتان: تيتان أو بروميثيوس هو أخو إيبميثيوس وقد عهد ملك الآلهة زيوس للأخوين بخلق البشرية والحيوانات على الأرض فكان أن نحتا البشر من طين وماء كما شاكلة الآلهة ومنح إيبميثيوس الحيوانات كل صفات الإنسان. وهب بروميثيوس للإنسان النار التي سرقها من السماء فكان أن غضبت منه الآلهة وتم عقابه بتقييده إلى صخرة في جبل شاهق وجعل الطيور الكاسرة تلتهم كبده المتجدد كل يوم...

أولئك الذين لهم فيه كل المكاسب تقريباً. إرادة عبور النهر للوصول إلى عالم آخر، ذاك أيضاً يستدعي أن تشيد من أجله جسراً لتحقيقه ومن ثم العمل. البحث عن المعرفة هو أيضاً تعلم الرؤية وحذقها، ربط الأشياء ببعضها، وهو العمل الدؤوب. ماذا تفعل عندما تريد أن تنصت إلي؟ أنت تشتغل، أيضاً، على فهم الإشارات التي أرسلها والتي هي كل ما أصوغه من كلمات. أليس الشاعر المشتغل على خلق الفعل مثل العصفور الذي يعمل على المحافظة على مملكته بواسطة شدوه؟ لا تكن طفولياً وساذجاً إلى هذه الدرجة.

ـ ولماذا سميته شغلاً بروموثيوسياً جسيماً إذن؟

ـ هذا سؤال جيد. بما أنك طرحته فإن ذلك يعني أنك بدأت تشتغل مسبقاً على الإجابة عنه. (يبتسم بمكر). لعلك تستشف ما ينبغي عليك نشره كمهارة كي تقنعها بأن تتبع خطوك بالضبط. هي خائفة. أنت تعرف ذلك. ثم إن هي تبعتك، إلى أين ستفران من حنق الرجال؟ ماذا ستفعل كي تهدئ من روعها خاصة؟ ولعل رعبها سينتقل إليك بالعدوى. كيف ستهدئ رعبك؟ أليس هذا شغلاً عظيماً؟ ورغم ذلك فإنه ليس إلا البداية. هل تظن أننا، حتى وإن كنا ملهمين من الآلهة، نستطيع أن نحب بلا قصاص؟ أجمل بهائم العدو، أوفرها صحة وأكثرها قوة يصيبها الإنهاك والنزف بمرور الزمن وبفعل المسافة. لا تنس أبداً هذا. مركبتك ترضخ للقوانين ذاتها. حيثما يممت روحك، مهما فعلت، فإن عجلة الزمن ستبلي رغبتك العارمة. ينبغي عليك أيضاً أن تتأمل ملياً فيما يلي: ما يدعى بالمسافة وعجلة الزمن ليس له أي وجود. أنت عدوك الوحيد وأنت الخطر الأوحد المحدق بك. تخيل إذن، لكن ليس دون أن تنظر إلى المجهود الذي ستبذله، العمل الذي يظل

عليك أن تكمله كي تحافظ على ملكك النفيس ـ الذي لا تستطيع أبداً أن تمتلكه !ـ تلك التي تعشقها . »

صمت الشيخ لحظة وهويلهب الجمرات بتحريكها في الوجاق .

ـ هل فهمت الآن؟

وجدتني مورطاً في تفكير لولبي ، في الصعود والنزول وفقاً لمشيئة إيماني وثقتي . كنت أزن وأروز ، رغماً عني ، نقاط قوتي وضعفي في هذه الشراكة (العملية) التي يصفها لي مارزن . العجوز الذي عرف كيف يستحوذ على محبة الآخرين ويكون ثاقب البصيرة ، وهي ليست موهبته الوحيدة ، غاب على ما يبدومن جديد . هوما زال أمام النار ، مديراً لي ظهره ، بيد أنني أعرف أنه بعيد في الخارج . لقد تركني لتأملاتي .

هيأت نفسي كثيراً للقاء لوسيل وأستطيع القول الآن أنني أيضاً ظللت متردداً لمدة طويلة . ما الذي دفعني لمثل ذاك التصرف؟ خلال فترة النضج تلك ، وأنا مشدود إليها بالكامل ، كانت لوسيل لا تنفك تفكر بي . لقد قالت لي ذلك بنفسها . كل هذا الذي يحدث لنا غريب . وها أنا مترع حقاً بمقصدي الجلي ونيتي البدائية ، مثل طفل حائر مضطرب أمام حاجز ضخم مشبك . ترى هل سأعرف طريق العودة مخلفاً ورائي هذا الكنز هنا والذي هو جزء من ذاتي ، جميلة الجميلات ، الثغر ، الحلم ، الأسنان ، الرؤيا ، النهد ، البطن والسعادة؟ هل صحيح أننا مفترقان يا لوسيل؟ السؤال الجميل! سوف يصر مارزن على ذلك . نحن لن نفترق . لننضم إلى بعضنا إذن . علينا أن نكون جسورين! سوف تكونين هنا عندما يكلل القمر الأشجار من جديد؟ هل سنرحل؟ هل سيكون هناك بعض فخاخ في انتظارنا ـ ولكن لماذا؟ وإن أنا مت فيما بين

الآن وهذه الليلة، ماذا ستفعلين؟ هي حياتك، طبعاً. أوه! لا، لا أريد أن أكون غيوراً من كل ما لا يمت لي بصلة مما يدور في فلكك. هذا سيكون حتماً غثاً ومبتذلاً. أنت أيضاً لست نصفي. أنت موجودة، يا لوسيل، وفي كل الحالات كما أنت، وحسب. نحن كلانا ناء عن الآخر، لكننا معاً، متحدان. هل تحبين ذلك؟ هل تدرين؟ كلب البحر عندما يختار رفيقته يتحد بها ولا يفارقها أبداً. هما يسبحان وكل منهما معانق الآخر إلى أن يداهمهما الموت. ورغم ذلك فإن الحرية ليست أن نحيا الاختناق، طبعاً. . . إنما كيف يمكن تحقيق ذلك؟

الفصل التاسع

نمت تحت السقف في لي سولاف. سريري يحاذي ملاكي الحارس بالقرب من العارضة، ومن الكوة، أجدني أتفرس في النجوم كي أغفو.

نعست اليوم دون صعوبة. لم يزعجني النهار المرصع بالضوء المنساب عبر كوة السقف في شيء. بعد الظهر، إثر الغذاء، قادني مارزن إلى الغابة لأنني أردت أن أحكي له حلماً كنت قد رأيته.

خرجنا بسرعة من الثنايا المألوفة. سلكنا طريقاً مختصراً وهادئاً يتبع النهر. كان مارزن يتوقف من حين لآخر كي يمد يده إلى شجرة أو سنديانة أو شجرة بندق أو شجرة تفاح. بدا لي أنه يحيي أصدقاء قدامى أو، بالأحرى، شيوخاً معلمين. في هذه المرة، جعلني رجل لي سولاف أكتشف تلك الأماكن الخالية من الأشجار في الغابة. استقبلتنا فيها تغاريد الطيور العجيبة. انفتحت السماء فوق رؤوسنا مباشرة بعد أن جعل مارزن يكشف لي بعضاً من أسرار ذلك الفضاء الذي نتواجد فيه. استطعنا الجلوس على صخرة متمددة، صقيلة وعظيمة، أحد طرفيها أعرض من الثاني. لا شك أنه كان في سالف الزمان الجزء السفلي لتلك الصخرة.

«هذه الصخرة تدعى لا روش سان كلي، (الصخرة بغير مفتاح)، أسر لي

مارزن باسماً، ولا أظن إلا أن المفتاح في الصخرة نفسها. »

لم يحدث قط أن رأيت كل ذاك الصفاء والهدوء في نظرات الشيخ وصوته ولا في حكمته وحرارته. في هذه اللحظة التي ينفتح فيها الغاب للسماء، نثرت في أعماق روحي بذرة تحول يا مارزن!

كان الحلم الذي رويته له مغتسلاً بقراءات من القرون الوسطى. آوتني كنيسة صغيرة تقترن فيها الشدة الرومانية الصافية بالجسارة والحماسة والعظمة القوطية[1]. قضيت هناك الليلة وحيداً. كانت تلك الليلة، وفي حمى من الضباب الكثيف، تمثل لي نزولاً إلى الأرض. ماذا علي أن أنتظر؟ ما علي، أنا المتصوف الزاهد المقفر من الإيمان، إلا اكتشاف بعض روح بإمكاني أن أتوسل إليها كي تساعدني على التقدم. عند الفجر، ردوا إلي سيفاً بعد أن هزمت به ثلاث مرات متتالية. كان يدعى لا بيان ترامبي[2] واقسم أنه الذي سيصبح منجم الميزان. كانت نهاية الليلة فاقدة لرشدها عندما انفتحت مصاريع القلعة المقدسة. ها هم يتقدمون أشداء، حكماء وبهيين. الإخوة المحبون الذين يغرسون ركبتي مباشرة في الأرض. جثوت على الأرض في مواجهة نفسي، هزيلاً، شاحباً ومحموماً مثل عائد من سفر محفوف بالمهالك. أراك في هذه الليلة، صنوي، أخي، صديقي، عدوي

1- القوطية: نسبة إلى شعب جرماني قديم ذي أصول اسكندينافية استقر شمالي البحر الأسود في القرن الثالث وقد كان في صراع دائم مع الإمبراطورية الرومانية. احتل القوط روما ثم جلوا عنها واستقروا في جنوب غربي فرنسا. أسسوا مملكة دامت حتى الفتح العربي سنة إحدى عشر وثمانمائة بالتقويم المسيحي.

2- لا بيان ترامبي: La Bien Trempée اسم سيف من القرون الوسطى وتعني المغطس جيداً إذ أن بعض سيوف المحاربين كانت تغطس في الفضة.

وآمرك بأن تظل صامتاً. سوف أحتويك، أقهرك وأروضك. يبدولي أن هذه اللحظة نقشت على وجنتي أثلام دموع عذبة. اجتاحتني عشرة قرون وحملت عند طلوع النهار، عند الفجر ذي لون الجمشت *. سوف أجلب لك من هناك وردة يا لوسيل. ذكرني مارزن، الذي اعتذر عن الذهاب بي إلى أماكن عادية، في البداية أن كل جزء من الحلم ليس إلا جزءاً من ذاتي. المنتصر علي في الكنيسة هو الروح في رحلة بحثها. الكنيسة، هي العالم، أو الحصن في مقابل العالم. هي قد تكون أيضاً احتكاك جسم الأنا بالعالم. أي عالم؟ الضباب هو العالم المرئي. الماوراء هو موضوع البحث، وهو أيضاً النزول في الذات آناء سهاد أو خلال ليلة جنينية. «إذن، أين توجد الصخرة المختفية؟» قال لي وابتسامته الملغزة لم تفارقه بعد. الرفاق المحتشدون عند الفجر يشكلون الأنا التي لا تقهر والتي تولد عند انبلاج الشمس، عند انتصار النور على العتمة. انتصار روحي كما يعلنه لون الفجر، البنفسجي الذي يعني أعلى درجات الرؤية للطيف الضوئي.

الأكيد أن الأقل أهمية ليس تسلم السيف. السيف هو رمز الطاقة التي، يحق لها، وهي الجوهرية، أن نسميها الحياة. هو أيضاً الفعل، الكلمة أو اللحن الخالق الذي لا يمكن تجنبه. هو منذور دائماً، ووفقاً لشفرة جليلة، لطلوع النهار بقوة، بفطنة وبهاء. وكل ذلك يمثل قواعد عمل المشيدين العظام.

«عند انبثاق النهار، يجب عليك أن تكتب بكل عشق، يا صديقي. بعد أن قال لي مارزن ذلك بعنف ماكر، دعاني إلى أن أتبعه كي نعود من حيث

---

* الجمشت: أو الكوارتز: نوع من الحجارة الكريمة البلورية البنفسجية اللون.

أتينا. طلب مني خاصة، أن لا أدعوه إلى توضيح تلك الحكمة. وانسحبنا من تلك البقعة العارية من الأشجار.

استشففت النواحي التي بدأت تلتحف بأحجبة الليل في الغابة المستحمة بالضوء، وأبعد من رؤوس الأشجار. كان مارزن يمشي واثقاً من خطوه. رجل شجرة يسير بين أشجار بشرية مادة أذرعها الجافة بالقرب منا. هناك، حيث تحدد صرخة أنثى عصفور أو قنفذ المواطنة غير المرئية للغابة. أحياناً يتوقف الإنسان ملء ثباته وينصت. همس من قاع الحنجرة ينبهنا إلى مرور النهر متسكعاً، خارجاً من مسيله وتائهاً في مضجعه. هدير، ضحك متقطع، جلبة زقزقة، قرقرة موحلة، نباتات دهنية وعطور، انزلاقات سرية على جرف الترعة، فرار بخفق الجناح أو في الأوحال المغمورة، صخور خضراء وملساء، عالم البدء/ الأصول، كل ذاك ما زال يخفق هنا، حوالينا، بينما نحن ننتصب، السيقان في السبخة والرأس أكثر نأياً من النجوم. مارزن! لكن أين ذهب مارزن؟ تسمرت، متجمداً، والأدهى يهجم على رأسي بعجالة. هل سأتوه! هل سأفوت موعدنا! أين القمر؟ لا، مارزن المنفلت في العتمة، توقف أبعد مني قليلاً كي يظل، متسمراً، يتأمل جذع شجرة أو فتحة في السماء. يا ولد! أيها العديم الثقة بنفسك!... عصا! إلي بعصا! يجب أن أعبر.

الفصل العاشر

تصدر قمر ضخم أبيض كبد السماء عندما عادت لوسيل إلى لي سولاف. كانت شاحبة، واهنة وكانت نظراتها محمومة عندما ضغطت على عنقي بفمها المشتعل المفتوح. أحسست بالغم الصافي آناء هذه الحالة من الهيجان. غادر مارزن المكان. اندفع كل منا نحوالآخر. رأيت لسانها مختلجاً بين أسنانها. كان عنيفاً وحارقاً في فم مترع تنفلت منه حشرجات مبحوحة في لهاث محترق. اعتراني خلال ذلك الحريق ارتجاف كامل حتى أن وجه لوسيل ورقبتها تغير لون بشرتهما لفرط وطأة اللذة. دارت روائحها، تغيرت وتعددت في تجزئة (نوتة) خرقاء مسكرة أكثر فأكثر. أوه! ما وهبنا إياه هنا كان فعلاً عظيماً، عنيفاً وعميقاً.

منذ التقائنا، لم نتبادل غير القليل من الكلمات. أي قوة جعلت كل واحد منا يذوب في الآخر، أي قانون آخر أكثر صلابة غير ذلك الذي يوحد عاشقين؟ كنا نريد أن نحكينا بجسدين مرهقين وكل منا مشدود النظر إلى الآخر. جعلها الضحك في لحظة الاسترخاء هذه، تتفوق على كل شيء. زواجها في دار بلدية القرية، طيشي هناك في الأعالي، بالشمال، طموحاتنا الكبيرة منها والصغيرة، وحدتنا الأزلية، كل ذلك مسح، هرب، تلاشى، صار بلا معنى. لا شيء يهمنا الآن إطلاقاً غير

هذه السعادة المخترعة والتي خلقناها من جديد. حافظنا جيداً على استذكار تخطيط لحماية ذلك الهناء كي لا نترك ظلاً واحداً يتزحلق على حلمنا. لا شك أنه ينبغي علينا الخوض في السؤال قبل أن نترك الكرب يحط.

في الوقت الحالي، نحن بصدد العمل بنشاط حول الموقد. ها نحن نعد طعاماً يليق بمضيفنا الذي نعرف أنه سيعود في وقت متأخر الليلة. أظن جيداً أننا، ودون أن نقول ذلك، نلعب دور زوجين عاشقين في عشهما الدافئ يا لوسيل، دون أن نقول ذلك!

أتذكر جيداً أن هدوء عميماً كان يجثم على لي سولاف عندما ولجها مارزن. صيحة طائر أنبأت بقدومه. أصبح القمر أكثر علواً وصار يبدو أصغر قليلاً.

ارتسمت على وجه الرجل الطيب القلب ابتسامة يغمرها الابتهاج عندما فتح الباب. البيت الذي يفيض دفئاً، الجمرات المتمددة في المدفأة والتي تتكفل بإنضاج الطعام، روائح المطبخ وهذان الشخصان اللذان ينتظران أن يقبّلاه، الشموع أيضاً ولعلنا كنا قد أشعلناها في كل أركان الغرفة، يبدو أنه وجد كل هذا رائعاً. «يا أولاد!» همس بكثير من الحنان والمحبة.

في تلك الليلة، وقبل رحيل لوسيل، روى لنا الشيخ حكايات وخرافات تمثل وفقاً لرأيه، محور المتخيل، قطب الأحلام والرؤى البشرية. كنا لوسيل وأنا، الجاثمين وأصابعنا متعانقة ونظراتنا مثبتة على جمرات النار المتوهجة، نحلق في رحلة سعيدة. كانت نبرة صديقنا الصارمة والواسعة تحملنا عبر القرون إلى ذروة الحب ومعرفة الذات. على امتداد الحكايا، كنا نرانا نقطة الالتقاء الوحيدة لهاته المحبات الماضية القديمة، الأسطورية أو الإنسانية إلى حد بعيد. لوسيل وأنا كنا ذينك العاشقين اللذين لم يقدر شيء

على تفريقهما وخاصة الموت. كنا مترغين برؤيا تلك العليقى المنبجسة من قبر أحدنا كي تغور في قبر الآخر المجاور. نحن مقترنان بعيداً عن الحياة والموت بواسطة مصفاة ما أو قدر سحري. نحن الجسد البشري لآلهة الحب الكبرى، غايتنا الوحيدة هي الاتحاد، ماذا قلت! الاندماج!

استعادت الروحانيات الغامضة بعض الشيء، والتي امتزجت بلقائنا، نبض الحياة وصارت تهب في كلمات مارزن، الشاعر المغني الخارق، الملهم، الذي كان يستريح قليلاً من حين لآخر كي ينصت ويغترف من الريح بقية حكاياته. أين كنا إذن؟ في أية عوالم، في أية سماوات كنا نتسكع مشرقين بالفرح؟ ـ أعرف أننا كنا نعيش نفس الرؤى!

الفصل الحادي عشر

جفاني النوم وأنا في غرفة السلم، بعد أن عادت لوسيل من حيث أتت. كنت أنزف. كل فراق للوسيل يتركني لاهثاً. أعرف أنني لم أعد أقدر على الحياة دون حضورها كما لو أنني صرت حبيس حلمي.

رأيت من خلال كوة السقف ألف نار ترف. سوف نعرف السماوات ذات يوم وستتعلم قراءتها. يتيماً أراني، عجاجاً تائهاً مضطرباً يطوح في المجرة بسرعات مدوخة لا يمكن إدراك حسابها في كون ليس فيه قياس، في تكوين لأنساق مدمجة بغموض، تتموج مرفرفة في فضاءات ليس لها نهاية تتقاطع مع فضاءات أخرى أيضاً ذات أعماق مختلفة تسعى دون حزم في درب التدفق. وحدها لوسيل هي تكاملي الحيوي، هوائي النقي. أظل الذي تتقاذف به الأيام في اللامتناهيات الحالكة الظلمة، المبتورة، الكابية. لست غير حرقة الانتظار والاشتهاء، المعذب بها، المتلف، الظمآن، حلزون الجفاف. اسمعيني يا لوسيل! حدثيني!

أبصرك وعيناي مغلقتان. يداك تخبطان في الهواء ونظراتك غارقة في نظراتي، نرحل نحومناطق وفضاءات أخرى. تحملنا الرياح المتواطئة ونحن مندهشان ومروعان فوق الجبال السوداء والمحيط غريب الأطوار. أنصتي، يا روحي، إنه توزيع موسيقي قديم هذا الذي يصرخ ببهجتنا. انظري إلى هذا

الشلال زاهي الألوان الذي ينسكب فينا! حلّقي، شديدة البأس، وشدّيني إليك! هيا بنا نغن لقاءنا للرجال، في حفلة موسيقية ونترك للأزمنة المتقلبة التي لا تستقر أبداً سعينا وبحثنا المشتركَيْن. دوري، تحولي، ثم ارحلي دون أن تغادري، أحبك، لم يعد للأرض تخوم والسماوات تزدحم بالغرف الزرقاء والوردية حيث يقيم حبنا للوجود. هنا، في القاع، كل شيء ليس إلا تعلماً منك، في النهاية . . . منا نحن الاثنين. كن باسلاً يا قلبي! هذه الغيوم ستحملنا ـ لكن إلى أين؟

خــرجت في الليل وولجت غــابة السنديان، يا لوســيل. بخطى موزونة، اقتربت من النهر وعبرت جسر الحلم. حملتك في. ها أنت هنا في صدري أحسك تنبضين. تعالي. ستعرفين نبعاً منسياً في أعماق انهيار من العسير ولوجه. تسيل فيه عين حقيقية وقوية لا أحد قادر على إخمادها. هناك حيث كان مارزن شاهداً على عرسنا الأول، تحت رعاية الآلهة العطوف. أخذت يدي وفي قعر يدك، شربت ماء جديداً قبل أن أهبك شيئاً منه بدوري كي تشربيه. اللبلاب، الوستارية[1] والزعرور البري كلها جعلت عرسنا الصامت يزهر وفي ركن بعيد من الغابة، كان عصفور الزريق[2] يصوت.

ينبثق الماء عند قدمي، وفي غيابك أخلق تقاربنا الجميل من جديد. أنتصب، شجرة، وأناديك من قلب العتمة: «يا لوسيييييييل!»

ثارت الريح. جعلت تلّف وتطوف بهذا المكان المتحدي للزمن. مارزن

1- الوستارية: جنس نباتات معترشة من الفصيلة القرنية.

2- عصفور الزريق: طائر على قدر الحمامة من فصيلة الغرابيات، مخطط الجناحين، أسود الذنب و كثير التصويت. وهو يعرف بالقيق أيضاً.

هوالذي علّمنا أما الريح فهي مبشرتنا . اذهبي ، يا بنت نفسي ، دون وقت ودون هم ، أسرعي واحملي لمعشوقتي نغم روحي . حفرت في داخلي وإصبعي ممدود على القنطرة العائمة ، واقتلعت القوة كي أحيي صديقتي الريح وأحرضها . حصل الأمر الآن . ها هي تسير ، تتدحرج وتعدوعلى شعر الأشجار . هي تحني العشب وتشعث المارة . ها هي تطير ، تعود ، تغطيك وتنفث فيك أفكاري .

الفصل الثاني عشر

استيقظت لوسيل في هذه الليلة. كان زوجها حينها نائماً. نشفت وجهها وشربت كأساً من الماء ثم فتحت النافذة. انحنت لها قمة السنديانة المقابلة لها محيية. ابتسمت. عربدت الريح المباغتة حينها، دومت، وثبت. كيف يمكن ألا تبالي بذلك! كيف يحدث أن لا تفهم!

صارت الريح أكثر لطفاً. داعبتها ثم أحاطت بها ملء لهاثها الدافئ وعنايتها. تجمدت لوسيل والتمعت نظراتها السارحة في الأفق. هي لم تشعر بالبرد بيد أنها كانت ترتجف. داعبت حلمتي نهديها المتصلبتين دون أن تفكر. أين تراه يكون؟ ماذا تراه يفعل؟ اللعنة! الينبوع!

انخفضت قوة الريح. تحت القمر الأبيض، طارت امرأة نحو لي سولاف. تزحلقت، هوائية، في الطريق العميق المجوف وكان اضطرابها كبيراً. جرت برشاقة والعينان جاحظتان، والثغر مبلل وكل جزء في جسدها يرتجف تحت وطأة ما يشبه الوجع اللذيذ والكوكب الأنثى ينساب قطرات فضية كي يمتزج بعطر شعرها. كانت الأشجار الصارخة تبلغها ودها وتشاركها أنسها. أسلافها من الأشجار في الأزمنة السحيقة السابقة، شاهدت نفس المرأة عابرة تحت أغصانها المنسولة، الحسيرة

عسفاً. كان مستقبل العالم في بطنها وكانت أذرع السنديان الموصولة فوقها مفتولة متشابكة مثل الآن تماماً، صانعة سياجاً من تمجيد وإعزاز. لوسيل لم تعد تسمع شيئاً، هي تعرف كل شيء. تمشي لوسيل، بهاء وقوة. هذه هي مسيرة الكون العنيدة، العتيدة، المتناسخة. الظل يتأخر القهقرى. هذه المرأة هي الفجر إذ ينتصب. هي قوية في رقة ونعومة، وهي أمل هذه الأرض حيث يذوي كل شيء ويسيل قبل أن يبعث للحياة. جريك أغنية تحجب سديماً هو أصوات متفرعة تنسق الوجود نفسه يا لوسيل. خطواتك تمحو كل البؤس ومن نفسك المتعطش تولد رياح جديدة تلقح وتخصب كل البقاع. أراك، بهية، تتبعين خيط قلبك، وأظل منتصباً في الليل، متوهجاً، بالقرب منك.

الفصل الثالث عشر

«جئت . . . !» تمتمت لوسيل وصمتت وأنا أعانقها . بطنها هو بطني الآن وصدرها يضرم صدري . حواسنا حصانُ مجنَّح نمتطيه كي نلتحق ببيتنا السري . ألوان غريبة تسكننا معاً آناء تجوالنا والكائن المتحد (الذكر المؤنث/ الأنثى المذكرة) يغطس في بحار ومحيطات بنفسجية .

لا نبتة واحدة، لا بحر يقدر على تفريقنا عن هذه العطور التي تخترقنا، بنفسجية، حادة نافذة، ناعمة، وتحملنا صرختنا فوق الآفاق كلها .

سوف نجعل هذه الليلة أبدية لا تنتهي . الليل هو مملكتنا التي تؤوي اتحادنا . سوف نستغني قريباً عن الريح حتى بالنسبة لنقلنا وعبر ظلام الوقت، سوف تغطي أعيننا أيضاً الجبال وعجائب من ضوء .

جسدانا بحيرة من السعادة الساكنة في خدرنا الدافئ الندي . تحلّق روحانا الباذختا الجمال على مياهها ملء انسجامهما إلى ما لا نهاية . توقفت الساعة ولم يعد الوقت الذي نستحم فيه قادراً على مواصلة السير هو الآخر . صار وعينا بالوجود تائهاً، متوحشًا . نراه أحياناً يحط على رائحة، على نفس أو أنين . تجاوزنا مفهوم الوجود . المناطق التي انفتحت لا تنفث حدوداً، صارت بكليتها افتراضاً . لم تعد سوى بهجة تسلّم نفسها لفتنتنا .

عندما انبلج الفجر، وجد على درج النبع روحين هاذيتين، ذاهلتين لشدة توافقهما وودهما. مالت الأشجار العملاقة مثل كهنة على طفلي الندى. تمدد العشب حولنا وكأن قوماً من الجنيات المتيقظة والمصغية في صمت آوت ليلتنا هذه داخل حلقة سحرية.

الفصل الرابع عشر

حملتُ لوسيل على ظهري في الدروب المنحدرة للغابة. وضعت وجنتها على رأسي فانساب شعرها وغطاني مثل حجاب فتنني عطره. كان ذراعا لوسيل يحيطان برقبتي مثل عقد بينما فخذاها يضغطان على خاصرتي. عبر عودة حقيقية لرقاص الساعة، رست بنا القوة المعكوسة، تلك القوة العاشقة للصعود الأبلغ تأثيراً والأكثر سرية فينا والتي قذفت بنا في فضاءات فلكية حطت بنا على الأرض وقادتنا إلى مركزها، كل ذلك وأنا تحت حملي العزيز. ولو كلفتني كل خطوة أنتزعها من الوحل، لو أن كل عضلاتي تكززت، لو أن جسدي تحدب تحت ثقل دون مقابل، فإن قلبي المحلق قرب قلبك يحضني على التقدم.

لم أتعثر. فمي كان يهمس لؤلؤ الكلام الذي كنت أوجهه إليك ممتزجاً بنفس حب يصوغه أحياناً فمك القريب.

وصلنا إلى الضفة الغربية لنهر الأرجن. المياه حمراء، هنا، الصخرة بلورية والحديد فائض في النهر. الشمس شاحبة إلى درجة الوهن والفتور. كان ضوؤها يشق له طريقاً في الضباب بمشقة عارمة. كان الهواء منعشاً، بارداً وملبداً. تزحلقت حبيبة روحي من فوق ظهري ثم وقفت على أطراف أصابعها وفاجأتني بقبلة هاربة على عيني. جلست مقرفصة على

ركبتيها . أمسكت بضمة من الأعشاب الهادرة وسرح نظرها على امتداد الماء . يا صنوي، أيتها الأنثى في، هل ترين رؤانا الغريبة لسير الأشياء المنعكسة على مرآة النهر البراقة متطابقة؟

«هل سنذهب بعجالة الآن؟»

في الحال، أنشدت هسهسة الماء المكتوم، غطسة تروتة* أو ضفدع، تساؤل لوسيل . عانقتها بعنف، التصقت بها بقوة في حين كان النهر يفر بلا انقطاع .

ـ لنعد إلى حيث مارزن كي نودعه ثم لنهرب .

ـ أين سنذهب؟

ـ سنسير إلى حيث تقودنا الرياح . لا شيء يهم ونحن معاً، ستحتفي بنا كل الأراضي التي نطؤها . هل ثمة ما يشغل بالك؟

دفعت زوبعة هوائية أبخرة الضباب بقوة وحجبت الشمس . أدارت لوسيل وجهها نحوي واستقرت عيناها الصارمتان والمبللتان على عيني . لم ترم بسيقان النباتات الملتفة حول يدها . انحدر شعاع من الضوء كي ينزل علينا .

«أتراني ما زلت حقاً سجينة للمظاهر والرفاهية وكل ما هو سهل ملائم؟ إن ما أصبو إليه من خلال سؤالي يا حبيبي، هوتعرف كيفية الانفلات من ثقل كل ما هو اعتيادي ومن خراب أعجوبة هذا الذي يدعى زواجاً . هل أنت واثق بما يكفي؟»

ـ انظري إلى تلك الطيور التي تهاجر عندما يغدو الفصل غير رائق . إنها رغم ذلك تتدفأ بأشعة الشمس نفسها في أي مكان من الأراضي التي تؤويها .

---

* التروتة : la truite جنس من الأسماك البحرية والنهرية وهي من فصيلة السلامون المرقط .

ـ فراقنا أدهى من الموت. هو يذلنا، يشوهنا، يبترنا ويذبحنا في ذاك الوجود الفظيع المتمرد. يجب علينا أن نقترن وأن نظل أبد الدهر على ذاك الحال.

ـ اتحادنا ليس وثاقاً إنما هو التحام. سوف نسعى قدر جهدنا إلى تحقيق نزاهته غير القابلة للتلف. هذا الحب غير عادي. كلانا يعرف ذلك. هو ليس سيدنا، ونحن لسنا سادنيه. هومهندس حياتنا، المنسق الأكثر إتقاناً لتفاصيلها. هل ترانا كنا موجودين قبل هذا اليوم؟

ـ كل ما أراه من حياتي، بين لحظة فقداني لك، قبل بضع سنوات خلت، واللحظة التي استرددتك فيها، كان نوماً، نمواً بطيئاً لنبتة، كان بدءاً لتجربة في التنسك الأعمى. هكذا وصفت لي تلك الفترة الطويلة من الزمن التي مررت بها أنت أيضاً.

ـ ذات صباح، مرت صورتك أمامي وأمسكت بها، أظن أن ذلك حدث عند الفجر. هل كان ثمة إمكانية اختيار آخر! ها أنا ألبي انتظارك. نحن محمولان، مسيران بعشقنا المشترك. سوف نرحل بكل حذر يا لوسيل. انسجامنا هو طفلنا ونحن سنعرف كيف نرعاه ونربيه.

ـ فليكن الأمر كذلك إذن.

قطفت لوسيل بأصابعها المرنة اللينة عسلوجي* نبتة عالية ربطتهما ورمت بهما في مجرى الريح. سقطا في مسيل الماء وجعلا يعدوان على متن النهر إلى أن اختفيا عن ناظرينا.

تملك الورع والحمية لوسيل المنتصبة الآن. كانت الصلاة الوثنية نفسها

---

* العسلوج: جمع عساليج: ما لان من أغصان الشجر.

تتعالى بداخلي وكنا في صمت خاشع نطلق عهودنا وأمانينا. انتصبت وراءك يا لوسيل وصدري يعانق ظهرك. كفا يدي تلتحفان بكفيك وأصابعنا تتشابك. وضعتهما فوق فخذيك. عند منحدر الوادي، يندفع عسلوجان متعانقان، لامباليان والآلهة شاهدة على نيتنا ومرامنا غير المفروضين علينا إطلاقاً.

الفصل الخامس عشر

عند رجوعنا، وجدنا مارزن جالساً في انتظارنا على المقعد الواطئ. كان الشيخ الوديع الهادئ ينفض الرماد عن الجمر وساقاه مستندتان قبالة وطيدة المدفأة.

«هذان الاثنان سوف يغادراننا.»

ـ أجل، ردت لوسيل. جئنا كي نودعك.

ووجدت نفسي مضطراً أن أضيف:

ـ بطبيعة الحال، لا يعقل أن نبقى في هذه المنطقة.

نفخ صديقنا على جمرات الوجاق. تصاعد اللهب فاحمر وجهه. تمعن فينا أكثر. ماذا تراه رأى؟ ارتسمت ابتسامة سرعان ما انطفأت على شفتيه.

««ثوران مشدودان إلى هيكل مركبة؟، ها هما يجذبانها. انظروا إلى هذه الروعة (المعجزة)! بني، إن كنتما متأكدين من أنكما لستما ثوري هيكل تلك المركبة، ينبغي عليكما التفكير فيما يمكن أن تشكله تلك المركبة التي تقطع أنفاسكما وأنتما تجرانها. المادة بحاجة أكيدة إلى الروح. هذان السفحان لذاك الجبل لم يوجداً لمجرد أن يحققا تناسخهما بل على العكس هما موجودان كي تجلبهما الأعالي. الروح هي الأخرى، كيف يمكن لها أن تتطور

وتتقدم دون المادة التي هي في الأصل سليلتها، ودون المعلومات المنقولة.

من المؤكد طبعاً، أن كل تمظهر هو انتقالي وزائل، ونحن لا نعدوأن نكون عابرين. ثمة مع ذلك مبادئ قادرة على الانفلات من البديهيات، وهي التي بنفس القدر، تشكل للأرواح الحادة البصيرة الدعائم الحقيقية لهذا العالم. إذا كانت القوتان اللتان كنت بصدد وصفهما لكما متعاكستين، فهما رغم ذلك ليستا خصمين شديدي التنافر إنما هما في حقيقة الأمر توازن محايد في حد ذاته. توازن علينا أن نجعله إيجابياً.

سهم رغبتي التائق للصعود مشدود إلى الأرض بسبب تردد لا مناص منه وهوالذي يمثل الثقل، ثقل كل شيء، كل إنسان، وبعض الأحداث. هوثقل كل الأفعال بما فيها فعل الرغبة. ورغم ذلك فإن الأكيد أن ذلك السهم يولد من سجن روحي في جسد سعيد وبائس في آن. التناقض هنا لا يعدوأن يكون مظهراً لا غير. أجمل تجسيد للحرية هو الريح. ماذا يمكن أن تكون الريح لولا التقاء الضغوطات، العالية منها والمنخفضة؟ هل كان بمقدور بئر الأحلام ذاك الطيران، دون التغيرات المباغتة للحرارة.

هذه الاختلافات نفسها لا تعدوأن تكون مجرد أوهام. ماذا يهم الموجة، الشاسعة والمتجبرة، أوجارتها الضئيلة التي وفدت إلى الوجود ميتة. وحده المحيط، الذي تنبعثان منه ثم تعودان إلى أعماقه، هوالجدير بالاعتبار. أسرعا، يا عزيزي الصغيرين، للاحتماء من هذا العالم وارجفا لأنكما العالم برمته. كيف يمكنكما الفرار منه؟

«أنتما تكونان تشكلان زوجاً كيميائياً في دورة التحولات. سرعتكما الخاملة لانهائية. أنتما أول عاشقين منذ انبثاق الإنسانية وأنتما زهرة الحب

ذاتها وستظلان أيضاً عصفورين في السماوات القادمة. أنتما التقاء فيوض الأرض. كم أحبكما!»

غمغم مارزن لاعناً الدخان وعيناه مغشاتان بالدموع. ثم قام كي يحضر لنا بعض الشراب.

الفصل السادس عشر

في وسط النهار، كنا لوسيل وأنا، اليد في اليد، نسلك الطريق دون أن نلتفت، وكلانا يلتهم الآخر بقبله. لم تعد لوسيل إلى منزلها. رسالة مخربشة بعجالة سوف تبلغ الأمر لرجل غير مشغول البال بها.

بعد أن أخذت سيارتي من البلدة المجاورة وسددت ثمن إقامتي، توجهنا نحو المدينة القريبة لشراء ملابس ولوازم للوسيل.

نداوة يديك تجعلني أخمن أنك كنت مسكونة بالخشية. كنت تلقين بنظراتك السريعة الخفية وأنت مرتاعة من أن يراك أحد المعارف في هذا المكان المحتشد بالناس. عوضت عين الجموع هنا عين الضياء والشمس المتزحلقة المصفاة بواسطة أفانين أشجار الغابة وغمام هذا الفصل. هنا، نحن في المنطقة المشاكسة العدوانية لكل ما هو غريب عنها. لم نتأخر هناك. ابتسامات التجار المسيخة التافهة أو الحلوة تثير فينا الغثيان. الحياة هنا استعراض أو حفلة تمثيلية والفرد يقاس باعتبار ملابسه، سيارته ووضعه المادي، كما يقولون. كيف يمكننا العيش بسيطين، متعريين ومنغلقين وراء هذه الحيطان. لفرط الظهور، سينتهي هؤلاء الناس بأن يتواروا. هم يحملون في عيونهم حرارة غير جيدة الانطفاء والأنف في الأرض، متقوس تحت ثقل فراغ الوجود. أو، على العكس، المنخران في مواجهة الريح. الغبطة الذاتية

معروضة كبديل لغيابهم العميق. ينشبون في نظرات الآخر خيلاءهم الدنسة. أي عواصف تقدر على صدع قشرة الأراجيف. بواسطة أي كشف تلقائي يمكن لهذه الكيانات المتعددة التائهة استرداد بعض حقيقة يا لوسيل؟

في قلب المدينة، ليس ثمة مجال لما هو طبيعي. فقط فن الصناعة هو الملك. بعض أشجار للاعتذار مغروسة هنا وهناك تصرخ بكل جوارحها كي تواصل الحياة، حبيسة وأكثر صحواً إزاء الانحراف الحضري.

إلى أين سنذهب؟ هل تتصورين أننا سنواري قراننا في بعض الغرف تحت السقوف حيث لا يمكنك إضفاء بهجتك على البريق الكامد لشاشات التلفاز المجاورة. فن الفرار من ذاك الموت المزوق هل يعني تنكرنا وتحللنا، مسطحين ومبتذلين، في هذه الحفلة التنكرية. هذه التسوية تفوق قدرتنا على التحمل نحن اللذين حافظنا على قوانا كي نكون حقيقيين قدر الإمكان. أن يبحث كل منا بواسطة الآخر عما نكون، فإن ذلك ليس فيه مكابدة ظاهرياً. ذاك ليس كرنفالاً عرضياً متناثراً بحريته المقنعة الملائمة لنا بل هو الصفاء الممحوص الخالص. كل واحد فينا، نحن الاثنيْن، فتنة للآخر. في تلميحك، على ضفة نهر الأرجن، قلبك كان يحكي الحقيقة. لنحافظ على روحينا من الضياع إذن! النوحد سعادتنا بوجودنا معاً ولنخبئها كنزاً نحضنه بحضورنا الذي لا يتراخى أبداً!

كانت لوسيل تتأملني دون أن تترك أصابعي وكانت بذلك تحث أفكاري على الانسياب. عندما درت نحوها، رفيقتي النقية الغالية، ضحكت وحدثتني.

«إذا كنت أحس الأشياء جيداً، يا صديقي، فإن لقاءنا هذا الأول في المدينة يرعبك أنت الآخر. رأينا النيون واللافتات الساطعة الإضاءة بيد أننا نحبذ الإضاءة الطبيعية. أترى لنا مكان هنا؟ ببساطة، إلام ترانا نحتاج كي لا

نفترق، كي نبقى قريبين؟ لنرجع إلى غابة السنديان، ولنعش هناك، عاشقين متوحشين، أرقّ نبتتين بريتين لم تؤوهما الغابة أبداً قبلنا. شيِّدْ لنا بيتاً جميلاً وعتيداً. أنا سأروح قرب مارزن كي أجمع بضعاً من نظرة إجمالية أو من تصميمات لجوهرنا وماهيتنا. أنت وأنا، خلقنا من تلك الطبيعة التي هي بيئتنا. لنكن الشجرة والنهر، الحية والقصبة، ولتكن هذه الغابة عشنا الرؤوم. لن يعضنا البرد ونحن معاً ولن ينقصنا أي شيء. في حالة احتياجنا، سيكون مارزن الوسيط بيننا وبين باقي العالم».

أنت تعرفين عمق الغابة المكتنفة للي سوليف.

«لن يعرف أي كان بوجودنا حتى في ذلك المكان».

قوة لوسيل وجسارتها تربكانني. كيف سنقدر على العيش في غابة البلوط ونحن منعزلان أو نكاد عن كل العالم. سنوات عديدة من الرفاهة النزرة دربتنا على العيش بتلك الطريقة، قريبين من منزلها القديم. أنت مجنونة، ورائعة الجمال ومحبة يا لوسيل. لعل جرأتك ستفتح لنا السبيل الوحيد كي لا نفك قراننا. ـ سوف أذهب!

أخذتك في حضني وقبلتك. ضممتك إلي وضغطت عليك وضحكاتنا للكسلان المذهول تغطي على هدير السيارات. رقصنا، ودوّمنا في هذه البقعة الرمادية الخرسانية ذات الواجهات الموعودة للضجر والغم. الحب والجنون ليسا اقتراناً رديئاً أبداً.

الكاتب جيرار كاramaro

Gérard Caramaro

ولد جيرارد كارامارو في الرابع عشر من أيار/مايو سنة ثلاثة وخمسين وتسعمائة وألف بكمبر في بروتانيا، شمال غربي فرنسا وهناك درس إلى أن تحصل على شهادة الباكلوريا. مباشرة إثر ذلك ، طار قناص الرؤى والسراب إلى باريس حيث تابع دروساً في فن المسرح والتمثيل. من مغامرات إلى أخرى ومن أشغال مختلفة إلى أخرى،حملته ميولاته الأدبية إلى مهنة المصحح الأصيلة الجديرة بكل التقدير والتي مارسها مذ ذاك ولم يتخل عنها إطلاقاً.

من الواضح جداً أن هذا العشق للغة كان بكوراً. خلال سنوات دراسته الأولى بالفصول الابتدائية ، كانت مواد تحريره تقرأ على تلاميذ الأقسام النهائية. كانت مغامراته الأولى مع الشعر المنظوم وظل كذلك لفترة طويلة من الزمن معتبراً، إن خطأ أو صواباً، أن هذا النمط من الكتابة غير سهل المقاربة بالنسبة للآخرين ، لذلك كرس جيرارد كارامار وقلمه ونذر روحه المحلقة في مدى العبارة للنثر الشعري.

ظلت نصوصه دائماً موسومة بتصوف غامض لا يمكن المسك به ، برغبة عارمة ودأب على الإدراك والرؤية (الضوء دائماً!) وفي نفس الوقت،بإرادة معرفة كنه الذات وجوهرها والرغبة في تجاوزها. أريج الميتافيزيقي المستحم بالشعر ينهمر فيما بين صفحاته. كثيرون هم القراء العاديون أو الأكثر ثقافة الذين يجدون أنفسهم بكثير من البهجة في رؤاه المحلقة.

موريس درويون ، سكرتير الأكاديمية الفرنسية الدائم كتب عنه في التاسع من تشرين الأول سنة سبع وتسعين وتسعمائة وألف ما يلي: «أعتبر هذا إلهاماً

ذا قيمة يذكرنا بجيرار دي نيرفال ويجعلنا نحياه من جديد، كل ذلك مع لغة تعانق الكمال على كل الاعتبارات.»

بعد فشل مرير مع ناشره ، قرر جيرار كارامارو وضع روايته الأولى «العرس السري» على ذمة القراء المهتمين مجاناً على النت.

وكانت النتيجة الحتمية! وكانت المفاجأة المتوقعة! بعد أكثر من عشرين ألف تحميل ، يظل العرس السري مرفرفاً ضمن المجموعة الأولى من خمسمائة وألف من المؤلفات الأدبية المعروضة على موقع ELG (والتي تعد ٩٩,٩ ٪ منها مؤلفات لأهم الكتاب الكلاسيكيين العظام) لعل ضربة حظ صغيرة فقط كفيلة بأن تجعل كتابات جيرار كارامارو متوفرة لكل شرائح القراء الشاسعة.

يجب أن لا أنسى التنويه بأن رواية العرس السري تحصلت على جائزة جمعية البروتانيين بباريس Fédération des Bretons de Paris سنة سبع وتسعين وتسعمائة وألف.

عن موقع إين ليبروفيريتا: الأدب المنصف
inlibroveritas : La Littérature Équitable
http://www.inlibroveritas.net/
http://www. inlibroveritas.net/auteur 5633. html

ترجمت سيرة الكاتب بتصرف طفيف.

قام بمراجعة النص الأستاذ:

محمد علي اليوسفي روائيشاعر ومترجم تونسي



في تلك الليلة،وقبل رحيل لوسيل،روى لنا الشيخ حكايات وخرافات تمثل وفقاً لرأيه،محور المتخيل،قطب الأحلام والرؤى البشرية.كنا لوسيل وأنا،الجاثمين وأصابعنا متعانقة ونظراتنا مثبتة على جمرات النار المتوهجة،نحلق في رحلة سعيدة.كانت نبرة صديقنا الصارمة والواسعة تحملنا عبر القرون إلى ذروة الحب ومعرفة الذات.على امتداد الحكايا،كنا ترانا نقطة الالتقاء الوحيدة لهاته المحبات الماضية القديمة،الأسطورية أوالإنسانية إلى حد بعيد.لوسيل وأنا كنا ذينك العاشقين اللذين لم يقدر شيء على تفريقهما وخاصة الموت.كنا مترعين برؤيا تلك العليقى المنبجسة من قبر أحدنا كي تغور في قبر الآخر المجاور.نحن مقترنان بعيداً عن الحياة والموت بواسطة مصفاة ما أوقدر سحري.نحن الجسد البشري لآلهة الحب الكبرى،غايتنا الوحيدة هي الاتحاد،ماذا قلت!!الاندماج!



أزمنة
تلفاكس 5522544 6 00962
ص . ب 950252 ، عمّان 11195 الأردن
(ردمك) ISBN 978-9957-09-339-6